وعند انبثاق الفجر انفلت من الفندق ليضع بعض قلبه فى صندوق البريد

* * *

وعلى خزان اسوان سار مطمئناً ، وهو يعجب بما يرى ؛ عن يمينه طود من الماء ، وعن يساره رشاش الماء المنسكب ، أمواجاً تتلاطم ، كأنها فى مضمار ، أيهما يبلغ الغاية أولاً ؟ وعلى سور الخزان المبنى من حجر الجرانيت ، وقف يتكئ على حاجز قصير هناك يطل منه على الماء يتدفق من فتحات الخزان حياة ، والخواطر تتدفق فى أعماقه شجواً حزيناً يبعث الألم . وأخذت الفتى روعة ما رأى وأحس كأن الماء الذى يترك فى أسفل يجذبه ليحمله إلى من يحب . ورأى الرشاش المتطاير تنعكس عليه أشعة الشمس فترسم عليه قوساً ذات ألوان جميلة ، كأن عروساً فى ثوب زفاف تتراءى له بين مرآتين ، ولكنه لم ير فيها إلا العروس التى فقد ، تبتعد بها الأقدار فى صحبة رجل غريب . ورأى الماء يتسرب من بين الصخور كما يتسلل القدر فى تاريخ إنسان ليضع فيه مأساة أو يصنع حادثة

ومضى الفتى يتخيل فيمعن فى الجبال ، والماء تحت عينيه يموج ويضطرب وزأر متدفقاً مكتسحاً فى بطش وعنفوان ؛ فما يرى الفتى بين الموج والزبد إلا صورة واحدة : صورة الفتاة التى بعد بها عنه هنف القدر وسلطان التقاليد

ورجع الأب ليصحب ولده فيعودا ، ولكنه انطلق يعدو حين رأى ابنه يوشك أن يتردى . فما بلغ إلا ليشهد آخر مأساة للشاب تتلقفه الأمواج

يا يد الشيخ أنت التى دفعته الى هذه الهوة فما كان لك أن تنقذيه . . . !

يا تجارب الشيخوخة كم أنت قاسية ! لقد أردت أن تزرعى السعادة فجنيت الشقاء . لقد كنت كبيرة فلم تفهمى لغة الشباب ، وكنت مادية فلم تفهمى حديث الروح ، وكنت صلبة فلم تعقلى كلمات القلب . هل أنت يا تجارب الشيخوخة إلا خرف الهرم ونكسة الانسانية . . ؟

ألا ليت الشباب وليت الهرم . . . ولكن ماذا يجدى ، ماذا يجدى ؟ ليت شعرى هل قُدِّر للانسانية ألا تبلغ سعادتها إلا على جسر من الضحايا ؟ فياويح الشباب وياويح الهرم !

كامل محمود حبيب

دراسة عن اسخيلوس

٣ ـ الفُـــرس

Persae

للأستاذ دريني خشبة

تتمـــة

— ٧ —

« يظهر شبح دارا ويخاطب الجماعة »

— «أوه ! أنتم هنا يارفاق الصبي ولِدات الشباب ! مرحى ! لقد ابيضت نواصيكم ، وجلل هاماتكم وقار المشيب ! ماذا ؟ ! مالكم واجمين هكذا ؟ أى شجو يعقد أساريركم ياسادات فارس ؟ ماذا أسمع ؟ هناك ! هناك فى جميع آفاق المملكة ؟ الجماهير العزيزة تئن وتبكى ! ويح لكم يارعاياى ؟ أية كارثة ؟ ! تكلموا ؟ إن قربان الخمر الذى أسقيتم ثرى رمسى قد روّى أعظمى وانتشت بحُمَيّاه نفسى ؟ لشد ما أيقظتنى أناشيدكم وأذكاركم تتغنونها على هذا القبر يا سادات ، وتتغناها معكم مليكتى ! ! تكلموا ! تكلموا إذن ! فيم جُؤاركم بى ، وصلاتكم من أجلى ، لأطوىَ الرحب إليكم من عالم الأشباح ؟ ! إن الآلهة ترنو إلىّ من بعد ، وإنها تكاد تتخطفنى ... لماذا تصمتون هكذا ؟ تكلموا وإلا فالويل لى من أرباب الظلمات ! ... »

— « لشد ما تفرق قلوبنا إذ نرى إلى هذه الهامة ! كيف السبيل إلى الكلام ؟ أى فزع يذوب كالموت فى فرائصنا ؟ »

— « ليفرخ روعكم ! إن صلاتكم الطيبة هى التى سمعت بى اليكم ! فيم هذا الجزع الذى يسيطر عليكم ؟ وهذا الحزن لِمَهْ ! تكلموا ! البدار ، اختصروا ما استطعتم فانى عجلان ، والآلهة تحدجنى من أعماق الدار الآخرة ! »

— « نفرق أن تتبس أفواهنا بكلمة مما حاق بأعز الناس ! إن حبنا له ، وجزعنا عليه يمنعنا من أن نقول كلمة ! ... »

— « هذا دأبكم دائماً ... طالما كنتم تخافون من لا شىء إذن ، فتكلمى أنت يا من كنت شريكتى فى أهنأ حياة ؟ وأرجو أن توجزى ما استطعت . ! ما هذه الصيحات التى ترتفع من رعاياى فى البر والبحر ؟ ما لهم يكون فى كل صوب ! »

— « مولاى دارا ! ؟ ملكى ! يا من ألفت مجد الوطن ،

وكنت مُحَسَّداً من أندادك للأبهة التي شادت دعائمها يداك... كم أنت اليوم مُحَسَّد كذلك للراحة التي تنعم بها في جوار آلهتك ... ؟ قصتنا موجزة ، وتكاد تروي كلها كلمة واحدة : الأمبراطورية يا مولاي ! لقد نسج الزمان عليها عناكب الخراب وليس من يقيل عثرتها ! ! »

— « لِمَهْ ؟ هل طاعون سلطه عليها رب الشر ؟ أم ثورة جعلت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ؟ »

— « لا هذا ولا ذاك ! ولكن ... جيشنا ... لقد حطمه القضاء تحت أسوار أثينا ! »

— « جيشنا ؟ ومَن مِن أبنائي هذا التاعس الذي عامر به ثمة ؟ »

— « الطائش إجزرسيس ! لقد أقفرت آسيا من روض شبابها بسبب تَهَوُّره ؟ »

— « في البر أم في البحر ، حاقت بهم النكبة النكباء ! »

— « فيهما معاً يا مولاي ! »

— « وكيف تم لهذا العسكر المجر عبور البحر إلى هيلاس ؟ »

— « مهندسوه يا مولاي أقاموا له جسراً عجباً ! »

— « وأي جسر هذا الذي يصبر لأمواج البوسفور وأواذيه ؟ »

— « كانت أرواح مخربة تنفخ في صدره طيلة ذلك اليوم ! »

« وأية ضربة لازب طاحت بجيش فارس وبأسطولها ؟ أكان العدو أكثر عددا وأعز قوة ! يا لتعسك يا إجزرسيس ! ترى ! كم شرذمة نجت من بطشة هذا القضاء ؟ »

— « ثلة في البر وثلة في البحر ... وكان هو ينطلق لا يلوي على شيء ! حتى عبر الى آسيا ! »

— « إيه يا آلهة ! هكذا تديرين رحى الخراب على من يديرها على نفسه ! إجزرسيس الطائش ! لقد كان شيطانه هواه ، فلم يرحم شبابه ولم يترفق بشباب فارس ! حسب المأفون أنه يسخر بالآلهة ، ليستطيع أن يكتب الأقضية ، ويحول مجرى المقادير .. الا قد حبط مكره ... وحاق به سوء تدبيره ... وبدد في حماقة كل ماذخرت لفارس من قوة وعتاد ... وجعل خزائن سوس لأعداء الامبراطورية نهباً مُقَسماً ... ألا من أضلك يا أتعس الأبناء ! »

— « أضلته نفسه ، وغلب عليه استبداده ، وسوّلت له تلك العُصبة من الحمق والمأفونين »

« تعساً لهم من مُشيري سَوء ، وإخوان ضلالة ! وتعساً له من أحمق ، هدم المجد الذي بناه أجداده فرفعوا عماده ، ومهدوا له وأرسوا في ساحات النصر أوتاده ... الشقي الذي نسي نصيحتي فوق سرير الموت ، إذْ حذرته من محاربة الهيلانيين ! »

— « والآن يامولانا ! أنصح لنا نهتد بك في ظلمات المستقبل »

— « هي نصيحتي أبداً ... لن تتغير ... لا تلتحموا في حرب مرة أخرى مع الهيلانيين ! حتى ولو كان جندكم أكثر من جندهم أضعافا مضاعفة ! إنهم يحاربون من أجل وطنهم المفدى ! أما أنتم ... ففي سبيل أطماعكم تهرق دماء شبابكم ! هذا إلى هيلاس نفسها ... إنها تحارب بجنود لا ترونها في جانب أبنائها ! »

— « هيلاس تحارب بجنود لا نراها ؟ وكيف ؟ »

— « أجل ! إنها تحارب المغيرين بالمجاعات والأوبئة والطواعين ! انظروا ! إن شراذم مبعثرة تهيم في الآفاق .. لا تلوي على شيء ... تفر من الميدان ! ويلاه ! إنها فلول أجنادكم ، أصبحت لا تقدر على شيء ! ... لقد تركها القائد الشقي تقاسي من الجوع والعرى والزمهرير ... أشباح وسمادير ، يرنق فوقها الموت عند كل أكمة !! إجزرسيس ! يا أتعس الأبناء ! ذق إنك أنت العزيز الكريم ! فيم استباح جنودك معابد الآلهة وأقداس الأرباب ! لقد دنسوا هيا كل القوم ، وسلبوا معابدهم ، وكسروا أوثانهم ... فليذوقوا إذن وبال أمرهم ، ولترو من دمائهم رماح الأسبرطيين ... وليؤدوا الدين من خزائن أرواحهم مُهَجاً غالية ! ! يا للآلهة ! ! ما أقساه درساً ألقيته على كبرياء بني الموتى وخيلائهم ! ! زيوس يا سيد الأولمب ! يا كبير الآلهة ذا الطول ، يا شديد الانتقام ! ما أهول بطشك حين تأزف ساعته ... وما أبلغ حلمك ! »

أيتها الملكة ! يا أم إجزرسيس ! يا أم ولدي التاعس ! هلمي فالبسي أبهى حلك ذات الأوشية ، وانطلقي فالقي ولدك المحزون ! رفهي عنه وواسيه بكلمة طيبة لن يحتملها إلا منك ، وبلغيه نصائحي ... »

أما أنتم يا رفاق صباي ! فالسلام عليكم ... لتثلج صدوركم ولتطب نفوسكم ... لقد فرغتم من زينة هذه الحياة الدنيا التي لا تسير في ركاب الموتى الى الدار الآخرة »

« يتبع »

— ٨ —

ويرسل الأشياخ الفارسيون النُّجب زفرة كأنها لفحة من جهنم ، ويعبسون عبوسةً سادرةً حزينة لما يتحيف الوطن من أشجان ، ثم تمضى الملكة لتضفى عليها من أبهى وشى فارس ولؤلؤ بحرها العجيب ، ولتذهب فتاتى ولدها المقهور المهزم ، الذى عاد من حابة هيلاس يجرر أذيال الخيبة ، ويتهالك على نفسه فى أسمال الحزى والانكسار ... « ولدى إجزرسيس ! الذى لابد له فى هذه المحنة من قلب الأم يضمه ويحنو عليه ، ويقشع عن عينيه ديجور الهم ، ويعيد اليه مسرة الدنيا وحبور الحياة ! »

— ٩ —

أما الخورس — وهم أولئك الأشياخ الوقورون — فيهزجون بنشيد طويل يذرفون فيه دموعهم على مجد الأكاسرة الغابر ، ويكون على أيام كانت فارس سيدة الأرض ومؤدبة الأمم ، ويذكرون الهزائم التى حاقت بجيوشهم فى البر والبحر ... « وشبح الخراب الذى ينوء بكلكله على المدائن والقرى ، واليتم والجزع والبكاء التى تغزو كل بيت ، وتمزق صدر كل أم » وإفلات الأيالات الفارسية فى غرب آسيا وشمال هيلاس من قبضة الفرس ... حتى لو شاء الهيلانيون غزو فارس نفسها لما استعصت عليهم (١)

— ١٠ —

« يدخل إجزرسيس متخاذلا »

— « واشجوى ! »

لقد جل الخطب ، وفدحت قاصمة الظهر ، وامتدت يد الحدثان إلى زهرتك يا فارس ، يا وطنى ، فقضت عليها فى ريعان ، وأذبلت غصنها إذ هو ناضر ريان ، وجباتها قصة فى كتاب الزمان ! ويحى ! كيف لى أن ألقى ساداتك أيها الوطن وقد خذلت هيلاس قواى ، وخانت تجلدى واصطبارى ! ألا ليتنى لقّى بين أشلاء جنودى ، ألا ليت كثيباً مهيلاً طوانى فى ساحة المجد ، فلم أعد اليك يا بلادى ! لقد كان ثمة عزاء لى بين القتلى من صناديدى ! »

— « أهذا أنت يا إجزرسيس ! ويلاه ! من للأبهة والمجد ! من للجيوش الجرارة والجنود المظفرة ! من للكواكب والرايات ! أين أين القادة الصيد ، والأبطال الصناديد والمغاوير المذاويد ؟ لقد انتفضت فارس تبكى أفلاذ أكبادها فأين تركتهم دون ولىّ ولا نصير ؟ أكانت تعدهم لهذا العبث الذى قذفت بهم فيه وهم زهرتها وذخيرتها وعتادها ؟ ويلاه ! يا للساعة ويا للحساب المسير ؟ لقد كان أجدر لو لم تلقك آسيا أيها الملك كسيرة القلب مهيضة الجناح ، لا حول لها ولا طول ، ولا مجير ولا هاد ! »

— « زو ! زو ! ياسادات فارس ! يا للحظ العاثر والمجد الغابر ! أو هكذا يارب تخزينى ملء رعيتى وبين جدران بيتى ؟ »

— « بل نحييك بالصراخ والعويل كما كان الماريانديون يحيون موتاهم ... »

— « إذن ، فهلموا فابكوا ! لتنهمر دموعكم حتى ما تجف ، ولتشق السموات آهاتكم حتى ما تقف ! ألا ما حيلتى ؟ لقد اتحدت علىّ الأقدار ، واسودت فى صحائف غيبى الحظوظ ! »

— « بل نحن نصرخ فى وجهك صرخة فارس التى كلها ألم وشجو ... »

— « وا أسفاه ! ماذا عسانى كنت صانعاً وقد اتحد مارس وملؤه علىّ ! »

— « بل قل لنا أيها الملك ! أين أين أكابرنا ؟ أين أين السوسيون والفرنديون والبلاجيون وغيرهم وغيرهم من أشراف القبائل والبطون والأفخاذ ؟

— « غرق من غرق ، وغال الردى فى الميدان من غال فى يم سلاميس وبرية بلاتيه . »

— « بل أجب هذه الدموع وخُرق الضلوع ! أين أين المظفر فرنوخوس وأريوماردوس الصالح ، وأمير الأمراء سيوالكوس ! وأين أين القنابل ذات الأيد من مازستراس وسيرابيس وممفيس ! ... »

— « ابتلعهم اليم ... ثم لفظهم الدأماء ! وداوت علتهم المنايا أغربة سوداً وغرابيب لا تبقى ولا تذر ! ... فلا قائد اليوم ولا مقود ! ! »

— « يا للنكبة ! يا للثمن الفادح ! يا لزهرة شبابك يا فارس فى هذا الرزء الذى ليس كمثله رزء ، والمصاب الذى دونه كل مصاب ! ! إذن ماذا بقى للوطن أيها الرجل ؟ »

— « هذه الأسمال التى ترونها لا تكاد تستر جسد مولاكم ! !

— « أهى كل ما بقى من الفرق و ... الهزيمة ؟

— « وهذا البيت الخاوى على عروشه ... وكانت اليه خزائن الأرض من قبل ؟ ماذا بقى لنا ؟ لقد تفرق عنى جميع أعوانى أبادد !

(١) صدق تقدير أسخيلوس فلقد غزاها الاسكندر بعد ذلك وخضد شوكتها